الأحد: 2023/10/22

التّوقيت: 14:50 – 16:20/ القاعة: 17 في الكليّة/ الفوج:1-2

التّوقيت: 16:30 – 18:00/ القاعة: 17 في الكليّة/ الفوج:3-4

الدرس رقم 03: الخطاب عند ميشال فوكو

سنحاول هنا إظهار الطابع الكلي للخطاب في فلسفة فوكو، وذلك من خلال الوقوف على منهج هذا الخطاب وسلطته ومختلف الممارسات الخطابية وغير الخطابية في التاريخ، أو ما يسميه فوكو بالوجود التراكمي للخطابات ووظائفها في التاريخ، حيث لا يمكننا الفصل بين دراسة الخطاب ودراسة التاريخ.

ويشار هنا إلى أن فوكو قد خص الخطاب ومفهومه بكتابين أساسيين هما: «إركيولوجيا المعرفة»، و«نظام الخطاب»، وبعض الدراسات الأخرى.

ويعرف فوكو الخطاب بقوله:

هو أحياناً يعني الميدان العام لمجموع المنطوقات.

وأحياناً أخرى مجموعة متميزة من المنطوقات.

وأحياناً ثالثة ممارسة لها قواعدها.

تدل كل هذه التعاريف على أن الخطاب هو كل ما هو منطوق.

كما يعرفه في موضع آخر بقوله: «**الخطاب مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ، بل عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شروط وجودها**».

فالخطاب والمنطوق والتشكيلة الخطابية، حسب فوكو أشياء تتنافر وما تعودنا على تسميته في إطار تاريخ الفكر (بالنص والأثر والقضية والجملة والمجال العلمي..) فهذه المفاهيم

كلها، لها علاقة بوهم الأفكار الاتصالية، وما يريد تأسيسه ودرسه هو تاريخ القطائع والانفصالات، لذلك اعتمد مفهوم الخطاب كحدث تاريخي فريد.

ثم أن تحليل الخطاب عند فوكو لا علاقة له بالتحليل الألسني أو التحليل المنطقي، سواء من حيث المرجعية أو من حيث الهدف، وميزته الأساسية أنه تحليل اركيولوجي جينالوجي يبحث في أثر الخطاب، وهو الذي يقوم على جملة من المبادئ والمعايير، الداخلية منها (التقرير والاحتفاظ والتملك والتكوين والتحويل والترابط والندرة والتراكم) والخارجية (النظر إلى المنطوق أو الخطاب من حيث انتظامه الخارجي).

وللتدليل على أن الخطاب يخضع لقوانين المراقبة، والتحكم، والتوجيه، يقدم ميشل فوكو مجموعة من الإجراءات التي نستعملها لهذا الغرض، أول هذه الإجراءات، وأكثرها تداولا، هو إجراء المنع.

يقول فوكو: "إننا نعرف جيدا أنه ليس لدينا الحق في أن نقول كل شيء (المواضيع المحرمة/الطابوهات: السياسة، الدين، والجنس أساسا)، وأننا لا يمكن أن نتحدث عن كل شيء في كل ظرف (السياق)، ونعرف أخيرا أن لا أحد يمكنه أن يتحدث عن أي شيء. هناك الموضوع الذي لا يجوز الحديث عنه، وهناك الطقوس الخاصة بكل ظرف، وحق الامتياز أو الخصوصية الممنوحة للذات المتحدثة".

وإضافة إلى المنع، هناك مبدأ آخر للإبعاد، هو القسمة والرفض، في هذه الحالة يتم تقسيم الخطاب إلى خطاب العقل وخطاب الحمق/الجنون، فخطاب العقل يكون منطقيا ومتماسكا، لذا يتم قبوله. أما خطاب الأحمق فيرفض ولا يتداول، كما تتداول خطابات الآخرين، باعتباره "حديثا فارغا ولا قيمة له، حديثا لا يمتلك أية حقيقة ولا أهمية، حديثا لا يمكن أن يكون محط ثقة من طرف العدالة، ولا يمكن أن يؤخذ كشاهد على صدق عقد أو ميثاق".

إجراء الإبعاد الثالث هو التصنيف أو القسمة الذي تميز بين الحقيقة والخطأ. لكن المشكل المطروح هو كون هذه القسمة مرتبطة بعوارض تاريخية، وهي قابلة للتعديل والتغير، بل إنها في حالة تنقل مستمر، بتعبير ميشل فوكو. فالمعتقدات الدينية والفلسفية وحتى الحقائق العلمية، التي نعتبرها اليوم حقيقة أو صوابا، قد تبدو في الغد أنها خاطئة.

والذي يجعل بعض الخطابات تبدو اليوم حقيقة هو كونها مدعومة بمنظومة كاملة من المؤسسات تقودها وتفرضها. وهذا ما يجعل الخطاب الحقيقي والصائب، هو في الأصل الخطاب السائد أو المرتبط بممارسة السلطة.

يشير ميشل فوكو إلى أن إجراءات الإبعاد الثلاثة (المنع، القسمة والرفض، الحقيقة والخطأ) هي إجراءات تمارس من خارج الخطاب. فنحن الذين نمارس المنع بتحديد المواضيع المقبول التحدث عنها والعكس، ونحن من نمارس القسمة والرفض، ونحن من نضع التصنيف حقيقة/خطأ.

إن تحليل فوكو للخطاب وما تميز به سمح بتأسيس مفهوم جديد للخطاب يختلف عن مفهوم القضية والجملة، وكشف عن بعد أساسي في الخطاب هو بعد السلطة، أو سلطة الخطاب، وفي الوقت ذاته بين الآليات التي تحكمه وتحد من سلطته، كآلية المنع والرفض والقسمة وإرادة المعرفة وأشكال التملك والتمذهب، ولتحريره وجب اعتماد بعض المبادئ الداخلية كالخصوصية والقطيعة.

في المقابل هناك، مجموعات أخرى من الإجراءات. وهي "إجراءات داخلية، إذ إن الخطابات ذاتها هي التي تمارس مراقبتها الخاصة". فإذا كانت الإجراءات الخارجية، وهي منظومة الإبعاد الثلاثية سابقة الذكر، تتعلق بالسلطة والرغبة، فإن الإجراءات الداخلية التي تمارس من داخل الخطاب بالأحرى "تعمل على شكل مبادئ للتصنيف والتنظيم والتوزيع".

نجد في المقام الأول من الإجراءات الداخلية إجراء التعليق، ففي كل حقل معين هناك خطابات أساسية، توجه وتراقب وتشكل نسق الخطاب في العصور الموالية، ففي الخطاب الديني، هناك النصوص الدينية (الكتب المقدسة مثلا) التي تشكل الخيط الناظم لهذا النوع من الخطاب في المستقبل، بحيث لا يمكن معارضتها أو القفز عليها وتجاهلها، وكل الخطابات التي ينتجها الخطاب الديني فيما بعد ما هي إلا تفسير أو تعليق أو محاورة للخطابات الأساسية.

ويمكن أن ندرج ضمن الخطابات الأساسية التي تحكم الخطاب من الداخل، النصوص القانونية والعملية، والنصوص الكلاسيكية في المجالات الأدبية والفكرية والفنية، ويؤدي التعليق على الخطابات الأساسية إلى عدد لا محدود من الخطابات، لكنه في المقابل لا يخرج عن نطاق إعادة إنتاج الخطابات الأساسية التي في غيابها سيكون الأمر عبارة عن توالد اعتباطي وغير متحكم فيه للخطاب.

أما الاجراء الثاني من الإجراءات الداخلية، فهو ما يسميه ميشل فوكو بمبدأ المؤلف الذي يعد عاملا محددا في تشكيل معنى الخطاب، إذ إننا نعطي للخطابات معانيها انطلاقا من معرفة صاحبها. ويصبح التركيز على مبدأ المؤلف أكثر إلحاحا في العلوم الإنسانية: أدب، فلسفة، تاريخ، علم اجتماع...إلخ.

يقول فوكو: "في الخطاب العلمي، كان الإسناد إلى مؤلف، في العصر الوسيط، ضروريا لأنه كان مؤشرا على الحقيقة، فقد كان ينظر إلى أي قول كما لو أنه يستمد قيمته العلمية من صاحبه نفسه، ومنذ القرن السابع عشر أخذت هذه الوظيفة في الانمحاء ضمن الخطاب العلمي... في مقابل ذلك نجد أن وظيفة المؤلف، في الخطاب الأدبي، ابتداء من نفس الفترة، ما فتئت تتدعم: فكل هذه الحكايات، وكل هذه الأشعار، هذه المآسي والهزليات التي يسمح بتداولها في العصر الوسيط في مجهولية نسبية على الأقل، ها هو يطلب منها الآن (ويطلب منها بإلحاح أن تقول) من أين أتت؟، ومن الذي كتبها؟. يطلب منه (أي المؤلف) أن يكشف، أو يحمل معه على الأقل، المعنى المخفي الذي يخترق هذه النصوص، يطلب منه أن يربطها

بحياته الشخصية وبتجاربه المعاشة، وبالتاريخ الحقيقي الذي شهد ولادتها. فالمؤلف هو الذي يعطي اللغة الخيال المحيرة مظاهر وحدتها، وبؤر تماسكها، واندراجها في الواقع".

وهناك إجراء ثالث يساهم في تشكيل الخطاب، يتعلق الأمر هنا بالفروع العلمية أو فرع المعرفة التي وإن كانت تزود الباحثين بالأدوات المنهجية والعلمية اللازمة في التحليل، إلا أن الكتابة داخل أحد الحقول المعرفية تتطلب الالتزام بمجموعة من الأمور منها:

– الكتابة حول المواضيع التي يتقبلها الحقل المراد الاندراج داخله، و"حتى إن لم تكن القضية تنتمي إلى فرع معرفي محدد، فإن عليها أن تستعمل أدوات مفهومية أو تقنية من نمط تحديدا جيدا".

– الالتزام بالمنهجية العلمية لذلك الحقل.

– احترام التقنيات والأدوات التي يستعملها الفرع المعرفي.

ويبدو تشديد ميشل فوكو على أهمية الفروع العلمية في رسم معنى الخطاب واضحا، لدرجة جعلته يسمي الخطابات التي لا تندرج ضمن أفق نظري لفرع علمي معين بمسخ المعرفة أو المعرفة الممسوخة، ويشير فوكو إلى أن الخطأ ضمن فرع علمي أهم من الحقيقة الممسوخة التي لا تنتمي إلى أحد الحقول العلمية، ويضرب مثالا بحالة بعالم البيولوجيا النمساوي المعروف، غريغور ماندیل، الذي قلبت أبحاثه المعروفة – بقوانين ماندیل– مبادئ علم الوراثة. ويشير فوكو إلى أن أبحاث ماندیل وإن كانت صحيحة من الناحية العلمية، إلا أنها "كانت ممسوخة، لأنها لم تكن ضمن الخطاب البيولوجي لعصره (أي ماندیل)."

ويختم فوكو حديثه عن مبادئ التعليق والمؤلف والفرع المعرفي بالقول إنها وإن كانت تساعد على إبداع الخطاب، فهي تظل مبدأ إرغام تقيده، وتراقبه، وتحد من صدفويته وتبعثره.

وعليه نجد فوكو قد أسس المبادئ الأولية لاتجاه جديد في الدراسات اللغوية والتاريخية والفلسفة، اتجاه قائم على مفهوم معين للخطاب، يتميز بالكلية والتمفصل، ومن خلال شبكة

العلاقات التي يقيمها مع موضوعات أساسية في الفلسفة والتاريخ على السواء، مثل المعرفة والسلطة والأخلاق.

ويمضي في تبيان علاقة الخطاب بالمعرفة، وعلاقته بالسلطة، أو بالممارسات غير الخطابية، واخيراً علاقته بالذات.

فيتوجه على **المستوى الأول** إلى الكشف عن الأرضية التي تقوم عليها المعارف في مختلف الحقب، أو المعرفة التي تحكم مجمل الخطابات في زمن معين، وبهذا يؤسس فوكو للأركيولوجيا باعتبارها حقل بحث، موضوعه المعرفة، ومنهجه وصف الممارسات الخطابية وتحليل أنظمتها الإبستيمية، كما يؤسس منظوراً نسبياً للمعرفة والحقيقة، ويربطهما بإرادة المعرفة والسلطة.

ويتوجه على **المستوى الثاني** إلى شرح مفهوم السلطة القائم على علاقات القوى ضمن استراتيجيات مختلفة، لا تتجسد في مركز أو مؤسسة أو ذات، بل هي ممارسات مبعثرة ومنتشرة على الجسد الاجتماعي كله، فهناك علاقة للسلطة بالخطاب وبالمعرفة وبالمجتمع، أو بتصور معين للمجتمع، قائم على الانضباط وسلطة المعيار والمراقبة، والعلاقة أيضاً مع أفكار المثقف الجديد الساعي للتطوير في محيطه الاجتماعي.

بمعنى أخر الخطاب هو وسيلة الوصول إلى السلطة، حيث إن إنتاج خطاب متماسك، قوي، وقادر على الإقناع هو ما يسهل الوصول إليها، والخطاب هو السلطة نفسها، فكل من وصل إلى السلطة – مهما كان نوعها– يسعى إلى تطبيق خطابه.

وعلى **المستوى الثالث** بحث فوكو في علاقة الخطاب بالذات، من خلال خطاب الجنس والاخلاق والجمال، فيدرس جملة من الافكار منها: أنه لا يمكن فصل الجنس عن مفهوم الذات وتشكلها وحقيقتها، وتناول كيفية تشكل الجنس في الخطاب وعبر الآليات المعرفية والسلطوية،

وأن معرفة الذات يكون عبر الاعتراف الذي يمكننا من تشكيل خطاب وتأسيس علاقات سلطوية حول الذات، وأن للسلوك الجنسي علاقة بأحد جوانب الذات، وهو الجانب الاخلاقي.

ومن هنا يتم التمييز في فلسفة فوكو بين الاخلاق والسلوك، وما يهتم به فوكو هو الأخلاق كسلوك، الاخلاق في تحققها وتطبيقها، أو الاخلاق التاريخية التي تخص مجتمعاً معيناً، وموضوعات متمحورة حول الجنس والجسد ونظام الرغبة.

فالأخلاق هدفها عند فوكو على مستوى الخطاب معرفة الذات وتشكلها كذات أخلاقية. وانطلاقاً من التحليلات التاريخية والفلسفية التي قام بها فوكو، بلور مفهوماً للذات اعتبرها شكلاً غير ثابت، نظراً لتغير العلاقات واختلافها، وهذا ما يسمح بالقول بالتشكل التاريخي للذات عبر مختلف الممارسات والتجارب، وعبر علاقات المعرفة بالسلطة.

أما على مستوى المكانة التي يحتلها خطاب فوكو في الفلسفة المعاصرة، تتمثل تحديداً ضمن الخطاب في التاريخ، باعتباره طريقة لمعالجة جملة الموضوعات الفلسفية، سواء اللغوية أو المعرفية أو السياسية، معالجة تاريخية، من هذه النقطة يتبين أن مفهوم الخطاب يعد مدخلاً ضرورياً لقراءة فلسفة فوكو، ومقاربة فلسفية صالحة لمناقشة وتحليل مختلف الموضوعات التاريخية والقضايا الفكرية والثقافية.

وفي كتاب "نظام الخطاب"، يشدد ميشيل فوكو على أن الخطاب لا ينتج بحرية أو بعفوية أو بارتجالية، كما لو كان ينتج لوحده، بل إن كل خطاب، مهما كان، محكوم بمرجعيات (دينية، سياسية، فكرية...إلخ)، وسياق (فصل دراسي، خطبة من على منبر، حديث في إطار علاقة شخصية)، وله أهداف معينة (إخبار، إقناع)، إلى غير من الاعتبارات التي تؤطر إنتاج الخطاب.